الباب الثاني

القصة في القرآن الكريم

«القَصصُ» مصدرُ قَصَّ يقُصُ قَصًّا وقَصصًا ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ١٧٦: الأعراف. أمّا "القِصصُ" فجمع قِصّة، من قَصَّ الأثرَ، أي تتبَّعه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ ١١: القصص، أي تتبّعي أثره.

والقِصّة فنّ أدبيّ، يحكي حدثًا أو مجموعة أحداث مترابطة، تجري في بيئة معيّنة، ويقوم بها شخص أو مجموعة من الأشخاص، بغية إيصال فكرة محدّدة إلى المتلقّي، وتمتاز بالطرافة في العرض والحدَث، وهي محدّدة بزمان ومكان.

طبيعة القصص القرآنيّ وأبرز أشكاله

والقصّة في القرآن الكريم تقُصّ أثر بطلها أو أبطالها خطوة خطوة، من خلال حدَث فيه عِبرة أو عِظة. ويُميّز القصّة القرآنيّة أنّها تحكي حدَثًا حقيقيًّا، وما ذكرته من موقف أو حوار أو شخصيّة، فهو صورة لواقعٍ كان، بالشكل الذي يستفاد من النصّ من جهة، ومن مجمل ما يتعلّق به في السنّة، وتقرّه روح الشريعة من الجهة الأخرى. والمقولة المتداولة أن القرآن الكريم ليس وثيقة تاريخيّة، تحتاج إلى الإضافة التالية: وهذا لا يعني أنّها تخالف الحقائق التاريخيّة والوقائع الثابتة.

من تجاربي في هذا البحث، أنّني ما تتبّعت أمرًا، ممّا تقول نتائج دراسة الآثار إنّه مخالف لما جاء في توراة اليهود، إلاّ وجدت في القَصص القرآنيّ ما يصدّقه، أو يقدّم البديل المنطقيّ عنه، وعمّا جاء في التوراة، أو يجيب عن تساؤلات يطرحها. حتى بتُّ على يقين أن الباحث، عندما لا يصل إلى هذه النتيجة، فلأحد أمرين لا ثالث لهما: الأوّل، أن فهمه للنصّ القرآنيّ لم

يكن كاملاً، والثاني، أن ما وصل إليه العلم في موضوع البحث ليس نهائيًا. وهذا ممّا يزيدني يقينًا إلى يقيني، أن القرآن العظيم يقف وحيدًا، بين كلّ ما عرفته الإنسانيّة من مصادر، ليكون شاهدًا على الحقيقة، لمن أرادها وتحرّاها، أو ألقى السمع وهو شهيد. وتتبُّع ذلك بحث شيّق أسأل الله أن يقيّض له من يقوم به بحقّه، لما فيه من خدمة للإسلام والمسلمين.

وإضافة إلى ما تقدّم، فإن كون قِصص الأنبياء، في الذكر الحكيم، ليست وثائق تاريخيّة، يعني أنّها لا تروي الأحداث بصورة كاملة محايدة بهدف التوثيق والحفظ، كما هو شأن التاريخ.

ولكنّها بعض من الرمز الرشيد، الذي يعتمده الخطاب القرآنيّ، لخلق مناخ يخدم الفكرة التي يطرحها، وليكون مصدرًا لما يحصّله المتلقّي ممّا وراء السطور. ولكنّنا عندما نقرأ الرمز على أنّه حقيقة فنحن نحوّله إلى خرافة، ثم لا نلبث أن ننسى الرمز، ونقف أمام الخرافة التي صنعنا نعبث مدّعين أنّنا نفسّر أو نؤوّل.

إن الفكرة التي تقرأها في القرآن العظيم ليست أحاديّة الأفق، فهي تستحضر إلى الذهن جملة أفكار، تتقاطر عليه، وتفعل فعلها في تهيئته لما يهدف إليه الخطاب المعجز، وهذا سرّ الغنى والخصب العجيبين في النصّ القرآنيّ، ولعلّه بعض المقصود بقولهم «القرآن حمّال أوجه». وهذا يعطينا قدرًا أكبر من السعة في النظر في النصوص التي ليست بقطعيّة الدلالة. والقصص القرآنيّ من ذلك، ولكنّه النظر الرشيد، أي النظر في إطار ما جاءت له القصّة من هدف، وإلاّ كان الأمر عبثًا.

وقد رأينا أن القصّة في الذكر الحكيم تطول وتقصر، وتجتمع وتتفرّق، فهي موظفة تُستدعى إلى حيث لها عمل[1]، ولا تُقصد لذاتها، بل تفعّل معنًى ممّا جاء نظريًّا في الذكر الحكيم، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ

(١) كإيصال معنًى، أو إثبات فكرة، أو تهيئة نفسية لتقبُّل أمر سوف يأتي.

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ٦: الحجرات، فهو أمر نظريّ مباشر بوجوب التبيّن، والعمل على استجلاء حقيقة النبأ لدى سماعه، ولا سيّما عندما يأتي من جهة غير أمينة. ونجد لهذا الأمر النظريّ مثالاً تطبيقيًّا، في موضع آخر، وهو قول الله الحقّ لعيسى عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ١١٦: المائدة. وما كان الله بحاجة، جلّ وعلا عن ذلك علوًّا كبيرًا، إلى سؤال عيسى، وما كان عيسى بفاعل في إجابة ربّه شيئًا، فهو يعلم أنّه علاّم الغيوب، ولكنّ الإنسانيّة بحاجة إلى ضمّ ذلك المبدأ إلى أوّلياتها، ولذا جاء به الذكر الحكيم بشكل تقريريّ في أكثر من آية، وساقه كذلك على صورة أمثولة تطبيقيّة، مسندًا إلى ذات الله ليكرّسه كمفهوم ثابت يُنطلَق منه ويُستلهَم.

وإلى جانب القصة يبرز المثَلُ وهو ذو حضور مميَّز جدًّا في الكتاب المبين. والمثل مقولة تختزل أقصوصة صغيرة، لا ترويها الكلمات، بل تشير إلى صورة لها في الأفق البعيد، فيضع كلّ متلقٍّ نظّارته الخاصّة، ويحدّد مجال الرؤية، ويصنع نسخته الخاصّة من تلك القصّة، ويصل من خلالها إلى القناعة التي وراء الهدف من العمليّة كلّها. وتكمن قدرة المثَل على التأثير في هذا الجانب الشخصيّ منه، حيث يختار المتلقّي عفويًّا الصورة الأرسخ في ذهنه، وبالتالي الأكثر جدوى، لأن رسوخها المسبق في ذهنه يعني اقتناعه بها، أو ألفته إيّاها على الأقلّ. ومن هنا كثر استعمال المثَل في الكتاب المبين، ومن ذلك مثَل الذين اشترَوا الضلالة بالهدى ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ ١٧: البقرة.

ولا يشترط في المثَل أن يخصّ قصّة واقعيّة، أو يغطّي حدَثًا حقيقيًّا، أو حدَثًا قابلاً للوقوع، فالمثَل في معظم حالاته افتراض، وقد يكون خرافيًّا، وكلّ صلته بما وراءه أنّه يمثّله بكيفيّة مّا، وبأيّة نسبة كانت[1]. ولا يختلف المثل القرآنيّ في ذلك عن المثل عمومًا، بينما يخالف القصّة القرآنيّة من حيث أن أحداثها تطابق الواقع. وقد يتداخل المثَل والقصّة فيقوّي كلّ منهما الآخر.

---

(١) كذلك القدرِ الذي في التمثال الحجريّ من حقيقة صاحبه.

وقد اعتُبر كثير من القِصص المسوقة على صورة المثل في القرآن الكريم، قِصصًا حقيقيّة، ولمّا لم يجد المفسّرون لها في الواقع ظلاً فزعوا إلى الرواة، وإلى المؤرّخين، وإلى كتب اليهود والنصارى، بل شافهوهم بحثًا عن الواقع الذي ينشدونه وراء تلك الأمثال، ونشط القصّاصون في تلبية الطلب، فأنتج ذلك غثاءً وزَبدًا ما كان للتفاسير أن تحتمله .

وهناك السِيرة، وهي فنّ أدبيّ يقابل الترجمة، وتحكي أحداثًا حيّة، مستمرّة. يساير القارئ أبطالها من بداية حياتهم حتى نهايتها. وبديهيّ أنّنا لا يمكن أن نطلب السيرة في قصص القرآن المبين، ولكنّنا، بشيء من التجوّز، يمكننا أن نعتبر سورة يوسُف مثلاً للسيرة القرآنيّة. وهي أنموذج فريد في فنّ السيرة، يجمع خصائص القصّة القرآنيّة إلى أبرز خصائص السيرة، بتغطيته معظم أحداث حياة البطل.

إن كلّ ما جاء في الذكر الحكيم عن الأنبياء من قَصص إنّما جاء ليُبرز حدثًا معيَّنًا، لقوم معيَّنين، في زمان معيَّن. ثم جاء النبيّ الخاتم، فكان كلّ حدث من أحداث حياته أنموذجًا أو مثالاً، يمكن النظر إليه بمعزل عن زمانه ومكانه والقوم الذين عايشوه. ومن هنا كانت قِصص الأنبياء قَصصًا وقِصصًا، أمّا قصّته ﷺ فهي السيرة. وكلّ دقيقة من دقائقها أنموذج يُحتذى، ودليل عمل، ومنهج حياة للناس كافّة.

وكلّ أمر من أمور الدنيا، ما وقع منها وما سوف يقع، مغطًّى في السيرة النبويّة تغطية مباشرة، أو متناوَل بصورة تتيح القياس والاستنباط والاتِّباع. فأحداثها تستوعب كلّ الممكنات، إمّا بوقوع أمثالها، أو أشباه لها يمكن قياسها عليها، أو بإمكانيّة استلهامها حلولاً لمسائل لم تُغطِّها أحداثها.

ونحن ملزَمون بتتبُّع السيرة واتِّباعها، لأنّها كلّها سُنّة. وهناك فرق جدير بالملاحظة بين تَبِع الأمر أو الشيء، وبين اتَّبَعه، فتَبِع الأمرَ تعني سار في أثره، أمّا اتَّبَعه فتعني التزمه، وأخذ نفسه به. وأنت تتبَع الرجل في أمر مّا، أي تفعل فيه فعله، فإذا تقصّيت ما يفعل حركةً حركةً، وتكرّر منك ذلك، فأنت تَتَتَبَّعه، وإذا ما سلكت بعد ذلك التتبُّع نفس مسلكه، وصار ذلك لك عادة فقد

اتَّبعته، أي صرت له تَبَعًا بصفة دائمة.

وهذا التتبُّع فالاتِّباع مطلوب بالنسبة إلى السيرة النبويّة. وهو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ ١٥٧: الأعراف، أي تطلَّبوا ذلك النور وتقصَّوا دقائقه وتفصيلاته، ثم التزموه منهجًا للفكر والعمل، يطبّقونه في ذلك تطبيقًا كاملاً، وسلَّموا تسليما. والبشريّة كلّها مسؤولة عن تتبُّع النور الذي أنزل مع رسول الله ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ ٢٨: سبأ. وسيرتُه ﷺ من ذلك النور.

أهداف القَصص القرآنيّ

القَصص القرآنيّ من المتشابه، وفي المتشابه عجائب لا تنقضي إلى يوم القيامة، فهو نوافذ للعقول المؤمنة القادرة على اعتماد المنطق في البحث والمحاكمة، والمرتكزة إلى قاعدة لغويّة متينة، والمزوّدة بقدر من المعارف، ولاسيّما ما يخصّ السنّة المطهّرة. فقد ينقدح في ذهنِ متبصّر، بعد ألف عام، في قصّة مّا، معنًى لم يخطر لأحد ممّن سبقوه.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ ١٢٠: هود، و﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ ٩٩: طه، و ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾٤٩: هود. فالنبأ هو ما لا تستطيع معرفته إلاّ أن تُخبَر به. ومن هنا فحديث الغيب أنباء، وقصص الأنبياء بعض من أنباء الغيب، التي لا يعلمها إلاّ الله، أوحيَ بها إلى النبيّ الأمين. وهي أنباء تعرّفناها عن طريق القرآن المبين حصرًا، وما كان للنبيّ، ﷺ، أن يعرفها من غيره على هذا الوجه الذي يخالف ما جاء به اليهود والنصارى.

وما جاء به القرآن الكريم من القصص موظّف لأهداف التنزيل وغاياته، ممّا جعله يقتصر على جوانب مختارة من أنباء الرسل، ولا يقصّ أنباءهم كاملة. ومن هنا فنحن كثيرًا ما نرى جانبًا من قصّة، أو إشارة إلى حدث في قصّة، حيث تستدعي المناسبة ويتطلّب الهدف من الخطاب. وقد تتّخذ القصص صورة أدنى إلى المَثَل، لتكون إشارةً إلى حدث في موضع آخر، يستعير دلالاتها لدعم المراد منه. وقد ترد القصّة الواحدة أكثر من مرّة، كلّ مرّة في سياق حدث مختلف، ومن الزاوية ذات الصلة به.

فالقصّة في القرآن الكريم توظَّف للهدف من إيرادها توظيفًا محكَمًا، يُفضي في النهاية إلى المقصود منها .

ويجمع أهداف القصص القرآنيّ وغاياته قوله جلّ وعلا : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٢٠: هـود. وقـد ترِد القصّة لواحد من هذه الأهداف، ولكنّها في جمهورها تجمعها كلّها، من حيث أن كلّ قصّة من تلك تثبّت فؤاد الرسول بما تتضمّنه من عناية الله به، وتكفّله بحفظه وحفظ رسالته، ومن حيث أنّها حقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن حيث أنّها في كلّ زمان ومكان، وكائنة ما كانت الظروف، موعظة وذكرى للمؤمنين.

نثبّت به فؤادك

لقد تولّى الله نصر نبيّه ورسوله، فأنزل سكينته على فؤاده، وثبّته بما قصّه عليه من أنباء من سبقه من الرسل ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ ١٢٠: هود، و﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ ٣٢: الفرقان، فقوّى بذلك عزيمته كي لا يُفجع بما ينتظره من قومه من الأذى، وما ينتظره قليل.

وتثبيت فؤاد النبيّ ﷺ بالقَصص القرآنيّ، ممّا يفسّر لنا صبره الجميل، وثباته العظيم أمام الشدائد والصعاب... ففي غار ثور حيث كانت السيوف التي تتربّص به قيد أنملة منه، وحيث كان صاحبه الصدِّيق غاية في القلق والاضطراب والخوف عليه، أن تصل إليه يد الباطل، كان رسول الله مطمئنًّا هادئًا، يثبِّت فؤاد صاحبه بما ثبّت ربّه به فؤاده ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ ٤٠: التوبة، و«ما ظنّك، يا أبا بكر، باثنين الله ثالثهما»؟[1]... لقد كان المصطفى ثابت الفؤاد، بما جاءه من القصص الحقّ، عن آدم ونوح وإبراهيم وعيسى و موسى، ذلك القصص الذي شدّ أزره به عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ ٧٤: الإسراء.

وقد اقتضى ذلك الهدف أن تتكرّر القصّة، أو تتكرّر الإشارة إليها حيثما كان فؤاد النبيّ بحاجة إلى التثبيت والطمأنينة، فكانت بعض القصص ترِد أكثر من مرّة، ويتمّ تناولها في كلّ مرّة في سياق حدَث مختلف، ومن الزاوية ذات الصلة بذلك الحدَث.

---

(١) صحيح البخاري: ٣٤٥٣.

إظهار الحقّ

عندما أضاء الإسلام جزيرة العرب، كان من فيها من اليهود والنصارى يتداولون عشرات من قِصص التوراة والإناجيل، التي نالها من التحريف والتزييف ما نالها، أمّا الوثنيّون، فكانوا لا يحفلون بشيء من ذلك. ثم جاء القرآن الكريم بالقول الفصل في هذا القَصص ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ١١١: يوسف. فهو القصص الحقيقيّ، الذي تلقّاه محمّد من ربّه، كما تلقّاه من سبقه من الرسل، ولم يفتره كما ادّعوا، وما زالوا يدّعون. وفي قوله: «تفصيل كلّ شيء» إشارة إلى أن ما لدى أهل الكتاب، ممّا يزيد على ما في القصّة القرآنيّة، ليس من عند الله، بل هو من افتراء كَتبتهم على أنبياء الله ورسله.

وقد جعل الله في هذه القصص هدًى ورحمة للمؤمنين، لما فيها من إرشاد إلى الطريق القويم، واستئناس بسيَر أرقى النماذج الإنسانيّة، ممّا ييسّر السبل إلى تمام اليقين.

ويحدّثنا القرآن الكريم عن تحريف يهود المدينة، وعبثهم بما بين أيديهم من النصوص المحرّفة أصلاً، لكي يشوّهوا كلّ ومضة حقّ، غفلت عن طمسها أقلامُ أسلافهم الآثمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ ٤٦: النساء، وقد عرض أكثر من صورة لتحريفهم ذاك، فهم يحرّفون المقابل لما يتنزّل على رسول الله في كتبهم، كما في محاولتهم تحريف حكم الرجم للزاني المحصَن عندما جاء الإسلام بما يصدّقه ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ ٤١: المائدة. ويرى الرازيّ أن تحريف الكَلِم هو التأويل الباطل والفاسد للنصوص، وأن المقصود بتحريفه من بعد مواضعه، أنّهم، إضافة إلى تأويله بالباطل، يخرجونه عن الكتاب. ويحتاط النصّ القرآنيّ أن يُظنّ أنّهم ما حرّفوا الكلم قاصدين، بل لعجزهم أن يعقلوه، فيقول عزّ وجلّ: ﴿يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ ٧٥: البقرة، فيبدّلون معناه وينحرفون بتأويله قاصدين. ولا يزال هؤلاء، ولن يبرحوا، يحاولون ذلك، بأساليب شتّى ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد تنزّل على رسول الله الذكر بالقصص الحقّ، فسدّد ما حرّفوا، وكشف ما

زيّفوا، وجاء بالحقّ المبين ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ ١٢٠: هود. وأكثر ما يتجلّى ذلك في الفضيحة التي تثيرها نتائج الدراسات والبحوث في آثار فلسطين، حيث بدت النصوص التوراتيّة، التي ظلّت إلى قرن مضى المصدر الأوّل لتاريخ المنطقة، لا تمتّ بصلة تُذكر إلى ما قدّمته وتقدمه تلك الدراسات والبحوث من نتائج[1]، بينما يمكن التوفيق بين النصّ القرآنيّ، ومعظم تلك النتائج.

وممّا كشفه القرآن الكريم وفضحه، البهتان العظيم الذي نال مريم عليها السلام في كتاباتهم الأثيمة ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ ١٥٦: النساء، فقد رمى اليهود مريم بالزنى، وقال القرآن العظيم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ ٩١: الأنبياء[2]، وادّعوا أنّهم قتلوا المسيح وصلبوه، وقال القرآن العظيم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ١٥٧: النساء.

موعِظة وذكرى للمؤمنين

والموعِظة ذكر أمر أو مثَل سيّء يُراد اجتنابه، وعدم الوقوع في مثله. ومن ذلك حديث الإفك الذي خاض فيه عصبة من المسلمين، ووصفه القرآن بالبهتان العظيم، وحذّر المسلمين العودة لمثله ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ١٧: النور. ومن ذلك أيضًا ما قيل إنه إشارة إلى بَلعَم بن باعوراء، في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ ١٧٥: الأعراف[3].

ويطّرد الوعظ في الذكر الحكيم بأخطاء الأمم السابقة، ولاسيّما بنو إسرائيل، ومن ذلك ما كان منهم حين جاوز الله بهم البحر، إذ أنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ١٣٨: الأعراف، فاستتبع ذلك ما استتبعه من سخط الله عليهم.

---

(١) انظر الباب الأول: في الإسرائيليات، و قصتَي يوسف وموسى عليهما السلام.

(٢) انظر قصة عيسى عيه السلام.

(٣) وبَلعَم بن باعوراء كان صِدّيقًا، وعالمًا جليلاً من علماء بنى إسرائيل، ولكنّه في آخر عمره أغواه الشيطان، فأخلد إلى الأرض، وطلب المال والشهرة، ومالأ الحكّام الظلمة ليتقرّب إليهم، فطرده الله وتركه في سبل الغواية التي اتّبع.

وهو مثل سيّء من تاريخ بني إسرائيل، أراده الله لنا موعِظة، لعلنا نثبت لما لم يثبتوا له، فننجو ممّا وقعوا فيه. وتقول الموعظة من وراء ذلك المثَل: أيّها المسلمون لا تنخدعوا بمظاهر قد تعجبكم، واثبتوا على التوحيد، وكلمة لا إله إلاّ الله، مهما كان للقوّة الغاشمة من بريق وتألّق تسحر به أعيُن الناس، والتزموا التوحيد فلا نجاة إلاّ به.

عبرة لأولي الألباب

أي إن وراء كلّ قصّة فائدة، فاعبروها إليها، واستخلصوها منها. فالعبرة تعني التدبّر والنظر، وتطلَق على معرفة ما ليس بمشاهَد عبر معرفة ما هو مشاهَد، ويكون عادة أمرًا إيجابيًّا، ينبغي أن نمارسه أو نطبّقه أو نقتدي به. فهي، على العكس من العِظة، مثل طيّب يُراد احتذاؤه، والاستفادة منه، باعتباره تجربة سابقة ذات نتائج إيجابيّة، تصلح درسًا لكلّ ذي عقل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١١: يوسف. وممّا قصّه علينا الذكر الحكيم للاعتبار قصّة قرية يونُس عليه السلام، وقصّة سحرة فرعون.

ـ العِبرة في قصّة قرية يونُس

يقول جلّ وعلا عن قوم يونُس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ٩٨: يونس. وقوم يونس الذين نفعهم إيمانهم هم أهل نينوى... ولم يزل الوعد الحقّ قائمًا، فنينوى في بعض الأقوال أوّل مدينة على وجه الأرض، ولم تزل قائمة إلى يومنا هذا، وقد عصمها الله بهذا الوعد من التلوُّث بالفرق الظالمة، وبقيت إلى الساعة محافظة على دينها وعروبتها وإسلامها... إنّها قرية آمنت قبل أن يأتيها العذاب، فوقاها الله شرّه، ونفّعها بموقفها هذا، وجعل في ذلك عِبرة لأولي الألباب.

ـ العبرة في قصّة سحَرة فِرعَون

سحَرة جاؤوا لدعوة الطاغية الجبّار، وكان من أهدافهم التقرُّب إليه بنصره على رسولَي الحقّ موسى وهارون، وإثبات تفوُّقهم طمعًا في عطائه، فإذا هم أمام ما لم يتوقّعوا... لقد غلب الإيمانُ سحرَهم. وما إن تبيّن لهم الحقّ حتى أُلقوا ساجدين... ما ناقشوا الأمر، ولا تلكّؤوا في اتّخاذ الموقف، بل انقلبوا من فورهم، وضربوا عرض

الحائط بما يتهدّدهم من طاغية لا يثنيه شيء عن البطش بمن يخالفه...

وبهت فِرعَون، ولم يجد ما يقول إلاّ تلك المقالة الحمقاء ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ٧١: طه.

وثبت السَحرة للاتّهامات، والتهديد بالتنكيل والتصليب في جذوع النخل، وقابلوها باستصغار، فقد عرفوا الحقّ فكبُروا به، وصغُر بذلك المبطِلون. و﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ ٧٢: طه.

موقف يريد الله أن نحتذيه ... وعِبرة يريد أن نعتبر بها : إذا تبيّن لك الحقّ فاعتمده فورًا، بلا مماطلة ولا تسويف، ولا تخاطب فيه الذين يمارون. وإذا أرادك عن الحقّ غاشم ذو بطش فلا تمالئ، ولا تخشَ في الله لومة لائم.

القَصّة القرآنيّة في الرويات وكتب التفسير

التواصل بين الداعية والناس عصب كلّ دعوة، ومعروف ما للقصّ من وزن في عمليّة الإيصال، وقد فطن الوعّاظ والخطباء المسلمون إلى أهميّة ذلك، فاستغلّوا القَصص القرآنيّ ببراعة، ونقّبوا فيه على الحكمة والموعظة والحقيقة، يستعينون بهذا في إيصال أفكارهم إلى مستمعيهم، وإقرار الغاية من الخطاب،واستعانوا بقصص أهل الكتابُ فأصابوا قليلاً، وأخطؤوا كثيرًا كما سبق أن بيّنا.

ولم يقف كثير من الوعّاظ والخطباء عند حدود القصّة القرآنيّة، بل راحوا ينفخون في أحداثها، أو يضيفون إليها، ليضمنوا لها المزيد من التشويق والجذب، أو جعلوا يعمدون إلى ما جاء في الكتاب العربيّ المبين من أمثال، فيكسون العظام لحمًا، ثم ينشؤونها قصّة. يضاف إلى هذا أن بعضهم لم يجد حرجًا في تصيُّد القِصص، من كلّ مصدر يتاح له، بل كان هناك من يخترعون قِصصًا لما لا يجدون له قصّة تغطّيه، أو يلفّقونها من أكثر من قصّة، ممّا يقعون عليه في أيّ مصدر كان.

وكان القاسمَ المشترك، لكلّ ما أُضيف إلى قَصص القرآن، روحُ توراة يهودَ الخرافيّة الأسطوريّة، القائمة على فكرة الجبر، والتعصّب للذات، والعنف

المأساويّ. ذلك أن جمهور تلك القِصص كان مصدره أهل الكتاب، وأن جلّ الروايات التاريخيّة، والقصص المختَرعة والملفَّقة، كانت تخرج من عباءتهم[1]. وكان لهذا الواقع أثره الهدّام في الفكر والمجتمع، كما سبق أن بيّنا في الكلام عن التلوّث بالإسرائيليّات.

وسرعان ما تبنّت معظم كتب التفسير ذلك القصص المجتلَب ذا الروح التوراتيّ الاتّكاليّ المعطِّل، ممّا جعله يقترن في ذاكرة الأمّة بالنصّ القرآنيّ، ويكتسب قدسيّة من قدسيّته. بل إن ما لحق بكتب الفقه والتفسير والسيرة من قدسيّة تصنيميّة في الفكر الإسلاميّ السائد، إنّما هو بعض من الفكر الإسرائيليّ. فكتب اليهود والنصارى، في واقع الأمر، لا تقابل القرآن الكريم من حيث مضمونها، ومصدرها، بل تقابل كتب التفسير والسيرة والفقه في التراث الإسلاميّ، من حيث أنّها كلام البشر. ومن الواضح أن القصّة القرآنيّة بريئة كلّ البراءة ممّا اجترحته هذه القصّة المجتلَبة وجالبوها.

* * *

(١) كانت ثقافة أهل الكتاب مسيطرة في مجتمع المدينة، حتى إن رفض الفكر الوثني بات يعني لعامة الناس تبني ما لدى أهل الكتاب.

obeikandl.com